

الرواية الشفهية



١٦٨ - الوثيقة

في الكتابة التاريخية

أ.د. محمد عبد القادر خريسات

قبل الدخول في إلقاء الضوء على تطور الرواية الشفهية في الكتابة التاريخية لابد من الإشارة أولاً إلى الخبر التاريخي، والدلالة اللغوية لكلمة شفهي أو شفوي. فالخبر في اللغة، واحد الأخبار، وهو السؤال عن الخبر، وكذلك التخبر، وخبرت الأمر، أخبره إذا عرفت على حقيقته. واستخبره، سأله عن الخبر وطلب أن يخبره^(١).

أما لفظة شفهي أو شفوي، فقد أعادها ابن منظور إلى جذرين هما شفا وشفه. فاللفظة شفا والتي منها المشافهة تدل على معرفة الخبر، فيقال أخبرني فلان خبراً إذا اشتفيت أي انتفعت بصحته وصدقه^(٢).

أما لفظة شفه، فهي تدل على المشافهة، وشافهه أدنى شفته من شفته فكلمة مشافهة^(٣).

وقال الجوهري^(٤): المشافهة، المخاطبة من فيك إلى فيه، ويقال شفهي وليس شفوية لأن الحروف الشفهية هي: الباء والفاء والميم. وفي التهذيب شفهي وشفوية لأن مخرجها من الشفة وليس للسان فيها من عمل.

بليغ عن الشعور الذي كان يسود الجدل الديني والمناقشات التي كانت تدور حول قيمة المعرفة التي كانت تعتمد على الذاكرة^(٦) .

ولما جاء الإسلام، وبدأ الاهتمام في الحركة العلمية، كان لابد من اتباع منهج أو طريقة في نقل الأخبار والأحداث من جيل إلى جيل، ولم يجدوا إلا الرواية الشفهية في بداية الأمر، لكثرة الأمية بين المسلمين، ولتمييزهم في ملكة الحفظ . وأمام هذا المنهج أصبح للروايات الشفهية أثر واضح في التأثير على أمر التدوين التاريخي في الإسلام .

ومن الطبيعي في ظل مجتمع كانت القبيلة الركيزة الأولى في أطره الاجتماعية أن تمتد الروايات القبلية المتأخرين بمواد الكتابة في تاريخ العرب قبل الإسلام بشكل خاص، وتاريخهم بعد الإسلام بشكل عام^(٧) .

بدأت الروايات الشفهية تظهر بشكل بارز عند عرب الجنوب، وفي أحوال كثيرة كانت هذه الأخبار تمزج بالنواحي الأسطورية، وكان من رواد هذا النهج وهب بن منبه (ت ١١٤هـ/٧٣٢م) وعبيد بن شريه الجرهمي .

مما تقدم نخلص إلى أن المشافهة هي إحدى مصادر نقل الأخبار . فالمصادر التاريخية قديمها وحديثها اتخذت طرقاً متنوعة في الحصول على الخبر التاريخي وذلك لتنوع مفهوم الخبر وتعدد مجالاته فبالإضافة إلى المخلفات البشرية من نقوش ونقود وآثار متنوعة وكتابات تاريخية توجد الرواية الشفهية .

وفي المعنى الاصطلاحي يقصد بالرواية الشفهية التعرف إلى أحوال الماضي القريب عن طريق أشخاص عاصروا هذه الأحداث أو كانوا قريبين منها ومن ثم معالجتها واختبار دقتها بطرق معينة^(٨) .

ومن يتتبع الكتابات التاريخية منذ أقدم العصور يجد أن البدايات الأولى كانت في الاعتماد على الروايات الشفهية .

فاليونان على سبيل المثال وصلوا إلى حد تفضيل الرواية الشفهية على الكتابة التاريخية حيث عُزي إلى سقراط أو أحد أساتذته قوله : إنه يكره أن يرى أفكاره تدون على جلود البقر الميتة بدلاً من أن تطبع على قلوب الناس الأحياء . وفي هذا القول تعبير

وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم .
غير أن كرينكو يشك في ذلك لأن كتاب
البيجان من ملوك حمير المطبوع في
حيدر أباد من رواية عبد الملك بن
هشام^(١٣) .

وقد علق الأستاذ الدوري على هذا
الأسلوب في جمع الأخبار المتعلقة
باليمن بقوله : ومن يقتبع الروايات
اليمانية الموجودة في المصادر الأولى
بمجموعها يجدها ذات طابع أسطوري ،
فبدلاً من أن تصلنا روايات متينة نجد أن
مثل هؤلاء الرواة يوردون قصصاً خيالياً
لتاريخ اليمن هي مزيج من القصص
الشعبي والإسرائيليات محاولين بذلك
تمجيد عرب اليمن^(١٤) .

وأود الإشارة هنا إلى أنه على الرغم
من شيوع الروايات الشفهية في التاريخ
اليمني عند الأخباريين في الفترة المبكرة
من صدر الإسلام^(١٥) ، إلا أن ذلك لا ينفى
معرفة عرب الجنوب للتدوين سواء كان
ذلك على الحجارة من خلال النقوش التي
دونت فيها كثير من الأخبار المتعلقة
بالجزية ومشاريع الري وإنشاء الأسوار
والتحصينات والحملات العسكرية أو على
الأوراق التي دونوا فيها أنسابهم بالإضافة

كان عبيد بن شريه ممن استدعاهم
معاوية بن أبي سفيان ليحدثه بأخبار
أهل اليمن والأخبار المتقدمة وملوك
العرب والعجم^(٨) . ومن خلال هذه
الروايات وصلنا كتاب أخبار عبيد بن
شريه في أخبار اليمن وأشعارها
وأنسابها وهو يتضمن أسئلة معاوية
وأجوبة عبيد عنها^(٩) .

وباستدعاء عبيد بن شريه يكون
معاوية بن أبي سفيان أول من عني
بأخبار العرب والأمم الأخرى . قال
المسعودي كان معاوية : يستمر إلى
ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها
والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتهما ،
وسير ملوك الأمم السالفة . . . ”^(١٠) .

واهتم وهب بن منبه أيضاً في
روايات عرب الجنوب ، ونسب إليه
كثير من الأساطير ، فجاء المتأخرون
وأدخلوا كثيراً من رواياته في كتبه ، فقد
روى محمد بن إسحاق (ت ١٥٢هـ) عن
عبيد ، وجمع عبد الملك بن هشام (ت
٢١٨هـ) كتاب التيجان لوهب بن منبه ،
بل إن الطبري استمد في تفسيره الكبير
للقرآن من أقاويل وهب بن منبه^(١١) .

وذكر ياقوت^(١٢) أن وهباً ألف
كتاب الملوك المتوجة من حمير

للوثائق الملكية والسجلات الحميرية^(١٦) .

وسار عرب الشمال على نهج عرب الجنوب بالاعتماد على الروايات الشفهية الماثورة وكانت معظمها تدور حول أيام العرب وما تخللها من قصص وأشعار . وعلى الرغم مما كان يحيط بهذه الروايات من تحفظات إلا أنها كانت تحفظ أحياناً جزءاً جوهرياً من الحقيقة^(١٧) .

صحيح أن الرواة اعتمدوا في أحيان كثيرة على خيالهم في ذكر الأحداث وضمنوها من الأشعار الموضوعة التي أشار إليها العديد من المؤرخين ، منهم على سبيل المثال ابن هشام الذي اختصر سيرة ابن إسحاق^(١٨) إلا أن الذي يجب الإشارة إليه أن كثيراً من هذه الروايات قد اعتمد على سلسلة متنوعة من الأسانيد التي بينت مصدر كل رواية ، وهذا الأسلوب يعطينا صورة واضحة عن مصادر الأخبار ، وهو أسلوب مقبول في التاريخ^(١٩) . ودخلت الرواية الشفهية أيضاً عند عرب الشمال والجنوب على حد سواء في ذكر الأنساب وتدوينها بصورة فريدة لم يشهد لها تاريخ الأمم

الأخرى مثيلاً . وقد قادهم ذلك إلى الحديث عن المترجم لهم بشيء من التفصيل^(٢٠) .

وكان معاوية بن أبي سفيان أول من اهتم بالنسابين واستدعاهم إلى مجالسه ، وفي طليعة هؤلاء دغفل بن حنظلة السدوسي (ت ٦٥هـ) ، وكان دغفلاً من النسابة المشهورين ، له مع معاوية جلسات عديدة يستعلم فيها عن مثالب وفضائل القبائل العربية^(٢١) .

واستدعى معاوية أيضاً أبا الشطح اللخمي ، وكان من الرواة والنسابين والعلماء ، جمع معاوية بينه وبين دغفل ابن حنظلة^(٢٢) .

وأول من ألف في علم الأنساب هو محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) ولم يصلنا كتابه . وتبعه أبو اليقظات سحيم بن حفص (ت ١٩٠هـ) الذي ألف كتاباً في النسب الكبير ، وكتاب نسب خندف وأخبارها^(٢٣) .

وجاء بعدهما مؤرج بن عمرو السدوسي (ت ١٩٥هـ) وقد وصلنا كتابه : حذف من نسب قريش . ثم تلاهم بعد ذلك هشام بن محمد السائب الكلبي (ت ٢٠٤هـ) الذي اعتبره حاجي خليفة أول

من كتب في هذا العلم وأيده المستشرق
ليفى بروفنسال (٢٤) .

والجدير بالذكر أن ابن الكلبي كان
يعمل صاحب خبر، ولا شك في أن هذه
الوظيفة قد زودته بكثير من المعلومات
التاريخية (٢٥) .

ولم تعد المادة الإخبارية مقصورة
على أيام العرب وأشعارها، وأنساب
القبائل وأخبارها، بل امتد ذلك إلى
مغازي الرسول ﷺ وسيرته وأخبار
الخلفاء الراشدين والفتوحات والفتن
وإلى دواوين الشعر وشرحها، وكان
أبو عبيد المتوفى (٢٠٩هـ) من المبرزين
في هذا المجال فكانت رواياته تشمل
النواحي التاريخية وأخبار القبائل
وأيامها، والفتوحات والفتن، ويتطرق
في بعض الأحيان إلى الفرق
الإسلامية (٢٦) .

وعلى أية حال فقد استقرت
الروايات الشفهية في الفترة الإسلامية
المبكرة في التاريخ على ثلاثة محاور :

■ المحور الأول : ويتعلق
بأخبار الأمم الماضية من بدء الخليقة
إلى أيام المؤلف، وقد نحى هذا
المنحى معظم المؤرخين وعلى رأسهم

محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة
٣١٠هـ .

■ المحور الثاني : ويتعلق بأيام
العرب قبل الإسلام، وما ذكر فيها من
أشعار .

■ المحور الثالث : ويتعلق بأخبار
الرسول ﷺ ومغازيه وبالخلفاء الراشدين
وأعمالهم .

ولم تسر هذه المحاور على أسلوب
واحد في اعتماد الرواية الشفهية . فإن
جاءت هذه الروايات على ألسنة عبيد بن
شurie ووهب بن منبه وكعب الأحمار
مشوبة بالخيال والأساطير، إلا أن الصورة
قد اختلفت تماماً عما جاء في الروايات
الشفهية في الإسلام كالتي جاء بها عروة
بن الزبير (ت ٩٢هـ)، وشرحبيط بن سعد
(ت ١٢٣هـ)، وإبان بن عثمان (ت
١٠٥هـ)، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم
(ت ١٣٥هـ)، وعاصم بن عمرو بن قتادة
(ت ١٢٠هـ)، ومحمد بن مسلم بن
شهاب الأزهري (ت ١٢٤هـ)، وموسى
بن عقبة (ت ١٤١هـ)، ومحمد بن إسحاق
(ت ١٥٢هـ)، والذين اعتمدوا في معظم
الأحيان على سلسلة طويلة من
الأسناد .

الحكم لا شاهد عليه ، وعلى منهجه سار كثير من الصحابة .

ولذا كانت أولى خطوات قبول الرواية الشفهية في الإسلام هو الشهادة على سماعها ، فكانت بهذه الطريق تضع أول خطوة من خطوات الأسناد ، فنشأ عن ذلك علم الرواية الذي كان محمد بن شهاب الزهري أول من قرر شروطه^(٣٠) .

ولاشك أن الرواية الشفهية في القرن الأول الهجري قد جعلت من حفظ الكتب المدونة عملاً سطحياً زائداً وواجباً غير مرغوب فيه والإشارة إليه عملاً مشبوهاً^(٣١) . ونجد مؤرخاً في القرن الخامس الهجري مثل الخطيب البغدادي يدعو للاعتماد على الرواية الشفهية ويقدمها على الروايات المدونة فقال : "لا تأخذوا العلم عن الصحفيين" . وحجته في ذلك أن الكتاب عرضة للتغيير والتبديل والنسخ والإزالة . . . وربما غلط الناسخ في النسخ ، ناهيك بالأخطاء التي تنجم عن النقط والتشكيل والأعجام التي عبروا عنها بالتصحييف^(٣٢) .

ولم نجد من الأخباريين من ينكر الرواية الشفهية ، إلا أن سعيهم الدؤوب بالوصول إلى الحقيقة جعلهم يضعون

لقد كان الأسناد هو الصفة الرئيسية لهؤلاء الأخباريين ، واعتمدوا اعتماداً كبيراً على الرواية الشفهية في تلقي الأخبار . فأبو مخنف المتوفى (٧٤هـ) على سبيل المثال يذكر مراراً صيغ الرواية الشفهية ويقول : حدثني رجل من آل خارجة ، وحدثني رجل من بكر بن وائل^(٣٧) . وأخباري آخر هو الهيثم بن عدي (ت ٢٠٦هـ) يستخدم صيغ الرواية الشفهية ويقول حدثني شيخ من كندة ، وشيخ من حمير ، وبعض أصحاب جعفر الصادق^(٣٨) .

لقد نشأت الرواية الشفهية في بداية أمرها بسيطة ساذجة تطورت بتطور العصر حتى أخذت في الإسلام صفة علمية متنوعة وفق المنهج التاريخي والأدبي ، وأصبح للرواية التاريخية رواة ، وللشعر رواة وللأنساب رواة . . . إلخ^(٣٩) .

وقد كانت البدايات للروايات الشفهية المتعلقة بحياة الرسول ﷺ ومغازيه وأحاديثها ، هو عدم التوسع فيها ، والإقلال منها . ويذكر بن قتيبة أن عمر بن الخطاب كان شديد الإنكار على من يكثر الرواية أو يأتي بخبر في

شروطاً لقبول هذه الروايات، فكان أن ظهر علم الجرح والتعديل في الحديث . فعلى سبيل المثال يرى الأصفهاني أنه لا مانع من أخذ الرواية الشفهية إذا كانت "منتحلة" من غرر الأخبار، ومنقاة من عيونها، ومأخوذة من مظانها، ومنقولة من أهل الخبرة منها^(٣٣) .

لقد كان الأخباريون الأوائل على حق في وضع شروط لقبول الروايات الشفهية وذلك تحاشياً لعمليات الوضع والتزييف التي بدأت تأخذ طريقها في ظل وجود الأحزاب والفرق الإسلامية والتيارات المذهبية المتعددة .

وقد أشار المسعودي في مقدمة كتابه إلى ملاحظة أمر الوضع، والتنبيه على مواطن الفساد وقال : وقد ألف الناس كتباً في التاريخ والأخبار ممن سلف وخلف فأصاب البعض وأخطأ البعض، وكل قد اجتهد بغاية إمكانه، وأظهر مكنون جوهر فطنته كوهب بن منبه، وأبي مخنف لوط بن يحيى، ومحمد بن إسحاق والواقدي، وابن الكلبي وأبي عبيد معمر بن المثنى . . . وغيرهم^(٣٤) .

إن هذه الحيلة لا تنفي أن نأخذ بالرواية الشفهية، وعلى رأي الكافيجي في كتابه المختصر في علم التاريخ، كل إنسان يؤخذ من كلامه ويترك^(٣٥) .

وقد اعتمد الرواة بشكل رئيسي على عامل الزمن^(٣٦) في بيان صحة الروايات، فقد ذكر سفيان الثوري (ت ١٦١هـ) لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ .

وسأل إسماعيل بن عياش (ت ١٨٢هـ) رجلاً : أي سنة كتبت عن خالد بن معدان فقال سنة ثلاث عشرة ومائه، فقال أنت تزعم أنك سمعت منه بعد موته بسبع سنين . وعن سهيل بن ذكوان أن أبا السندي نقل عن عائشة وزعم أنه لقيها بواسط، وهكذا يكون الكذب فموت عائشة كان قبل أن يخطط الحجاج مدينة واسط بدهر .

ولما كانت آفة الأخبار تكمن في روايتها أيضاً، فإن الأخباريين العرب حاولوا قدر الإمكان ضبط هذه الروايات من خلال إيراد أكثر من رواية للخبر الواحد وبأكثر من أسناد لعرض جميع وجهات النظر من الأحداث التاريخية أمام القارئ، خاصة إذا علمنا أن ظهور الأحزاب والفرق الإسلامية قد أدى في

متشابهة، وتقديم لفظة على أخرى حسب منهج المحدثين أو الأخباريين مثل : حدثنا، وأخبرنا، وأنبأنا، وسمعت، وقال لي، وقال (٣٧) .

أحوال كثيرة إلى وضع في الروايات للتأكيد على وجهات النظر المختلفة . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل فرقوا في أحوال كثيرة بين ألفاظ

الرواية الشفهية في الدراسات التاريخية الحديثة

الزعماء فحسب بل يجب أن تمتد الدراسات التاريخية إلى مختلف جوانب الحياة .

والواقع أن معظم الدراسات التاريخية ومنذ أقدم العصور وحتى يومنا هذا لا تركز إلا على دراسة المواقف الرسمية وتسجيل أعمال القادة وأفكارهم دون أن تحظى المواقف الشعبية بالاهتمام الوافر . وفي حالات كثيرة، وعبر العصور المختلفة كانت حركات الشعوب توصف بالغوغائية وعدم المسؤولية بخروجها على مصالح الحكام مما كان يعرض هؤلاء الناس للقتل والسجن والتعذيب والنفي في غالب الأحوال (٣٨) .

لقد أشار العديد من الباحثين إلى عدم الاهتمام بدراسة الأحداث من وجهة

ما زالت الآراء منقسمة تجاه الروايات الشفهية، وهذه الآراء تتمثل بمنهجين :

الأول : يرى بأن الرواية الشفهية يعتريها التحريف المستمر، والنسيان، ويرون بأن النقل المكتوب هو أفضل وسائل المعرفة التاريخية . ويشددون على الوثائق المكتوبة، وإن كان لابد من أخذ الرواية الشفهية فيجب أخذها بحذر، وبعد تدعيمها بالمدونات التاريخية (٣٨) .

الثاني : يميل أصحاب هذا الرأي إلى أن دراسة التاريخ يجب أن تتسم بالشمولية، ولتحقيق ذلك علينا أن نبدأ من القاعدة إلى القمة . ويقتضي ذلك عدم التركيز على المواقف الرسمية وحياة

التاريخي فتصبح بعد مرور فترة زمنية في طي النسيان .

وللمعالجة ذلك أصبحت الحاجة ملحة وبصورة أكثر إلى الروايات الشفهية في الكتابة التاريخية المعاصرة . صحيح أن عصرنا الذي نعيش فيه هو عصر العلوم والتكنولوجيا ، إلا أنه من ناحية أخرى عصر العقلية التاريخية التي أخذت تركز على التاريخ الشامل لكافة مناحي الحياة .

إن تدوين التاريخ يحتل مكانة هامة في تكوين مستقبلنا السياسي ، والرواية المدونة وحدها لا تكفي ، ومن هنا فإن ذلك يتطلب منا نمواً في العقلية التاريخية التي تركز على الوعي التاريخي ، لا في تاريخنا فحسب ، بل في تاريخ العالم أجمع .

إن النضج السياسي يقتضي بالضرورة فهماً تاريخياً عميقاً ، لأن هذا الفهم هو أهم مقوماته^(٤٢) . وللدلالة على ذلك أن دراسة المجتمعات وكيفية تطورها تحتاج إلى التبصر بالعوامل المؤثرة على كيفية التطور والتيارات والقوى المحركة لها ، والدوافع والمصادمات التي تشكلها عامة كانت أم

نظر الجماهير التي كان لها الدور الأكبر في صنع هذه الأحداث ، فجاءت كتاباتهم لتركز على وجهة نظر الجماهير ومنهم جورج رودى في كتابه الجماهير في الثورة الفرنسية ، وزميله ريتشارد كوب بدراسة الجماهير في الثورة الفرنسية بكتابيهما : البوليس والناس^(٤٠) .

لقد أوضح ويدجيرى مقدار الاهتمام بالزعماء والرؤساء ، وساق مثلاً على ذلك من تاريخ الصين وقال : يحتوي تاريخ الصين المدون على مجموعة ضخمة من الوثائق ترجع إلى عصور سحيقة في القدم ، وما وصل إلينا منها فيبدو غالباً على شكل حوليات تتعلق بممثلي الطبقات المسيطرة بنوع خاص ، وأحدث سيرهم والحروب الأهلية كما تتعلق برقي مختلف الأسر الحاكمة ومصيرها . ويندر فيها التبصر في طبيعة هذا التاريخ ومغزاه^(٤١) .

لقد أخذ مثل هذا الاتجاه يتبلور وبصورة واضحة في الاهتمام بالرواية الشفهية لأن التاريخ المدون وحده لا يفصح عن حقيقة الموضوع الذي تعالجه هذه الأحداث ، ولا يوضح الكثير من الانعكاسات والقضايا المرافقة للحدث

خاصة، وهذا يجب أن يتم وفق المنظور التدويني والشفهي .

إن أهمية الرواية الشفهية تبعث الحياة في الخبر عندما نطلع على الخلفية التي تقف وراءها، لأن التاريخ الحقيقي هو الذي تكمن فيه المرونة والتنوع والاستثارة، فليس للتاريخ إيقاع واحد، أو خطة واحدة، وإنما له إيقاعات وخطط ونماذج .

إن أغلب المؤرخين اليوم يهتمون في التاريخ من واقع كتب تقرأ، أو وثائق تقدم ولكن الحقيقة أن الأشياء التي نراها ونسمعها كلها ووثائق تاريخية لا تقل أهمية عن المراسيم والبلاغات والسجلات الحكومية، وهنا تصدق المقولة التي تقول لكل شيء تاريخه . ونستطيع أن نضع نموذجين كشاهد على ما ذكرنا :

الأول : التاريخ الاجتماعي، فالحياة اليومية للناس تحمل في طياتها صوراً متعددة، تتمثل في العلاقات الإنسانية والظروف الاقتصادية، وطبيعة حياة الأسرة والحياة المنزلية، وظروف العمل، والعلاقة بين الأفراد والجماعات، وثقافة المجتمع، وموقفه

من السلطة الحاكمة . . . إلى غير ذلك من الأمور . فهذه الصور إن لم تكملها الروايات الشفهية يصبح التاريخ منهجاً غير متكامل .

ويؤكد ذلك تريفلين حيث يقول : بدون التاريخ الاجتماعي يصبح التاريخ الاقتصادي عقيماً، ويصبح التاريخ السياسي غير قابل للاستيعاب . . . يتحرك التغير الاجتماعي كما قد يتحرك نهر تحت الأرض يتبع سنن التغيرات الاقتصادية أكثر مما يتبع اتجاه الأحداث السياسية التي تتحرك فوق سطح الحياة . والسياسة هي مصدر التغير الاجتماعي أكثر مما هي ثمرته . فرئيس جديد، أو حكومة جديدة، أو برلمان جديد كثيراً ما يميز عهداً جديداً في السياسة ولكنه قلما يؤثر في حياة الناس (٤٣) .

والثاني : التاريخ الدبلوماسي، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل تصدر في أحوال عديدة أخبار مضللة سواء لكسب عواطف الناس، أو للخوف من تحرك الجماهير، فتأتي الرواية الشفهية لتضع الأمور في نصابها الصحيح . ويمكن للمهتمين متابعة ذلك من خلال

الدبلوماسية العربية وارتباطها مع
الدبلوماسية الغربية، ولا أريد ضرب
أمثلة لذلك .

نخلص مما تقدم إلى أن المؤرخ في
حالات كثيرة بحاجة إلى مصادر مساندة
لدراسة الوثائق المدونة، وتأتي الرواية
الشفهية لتكون خير معين لتحقيق ما
يلي (٤٤) :

■ الوصول إلى مصادر جديدة (عدد من
الرواة والروايات) .

■ الاستدلال بها على كيفية قولبة
الدليل المعاصر والشاهد على الحدث .

■ الوصول إلى تفسيرات غامضة .

وإذا كان العرب المسلمون قد
وضعوا أسس الرواية الشفهية وطرق
اعتمادها، إلا أنهم مع مرور الزمن
أخذوا يميلون إلى المدونات أكثر من
اهتمامهم بالروايات الشفهية، إلا أن
الصورة بدأت تتغير بصورة واضحة منذ
مطلع النصف الثاني من القرن العشرين .
ويبدو أن الغرب كانوا السباقين إلى هذا
الميدان حيث أسس بجامعة كولومبيا في
الولايات المتحدة مركز لجمع وتوثيق
وذكريات وتجارب الشخصيات الهامة

في الحياة الأمريكية سمي مشروع ألن
نيفنز .

وجاء بعد مشروع جامعة كولومبيا،
الجمعية الأمريكية للتاريخ الشفوي،
ومجلة جمعية التاريخ الشفهي
البريطانية (٤٥) . لقد صدر العديد من
الكتب في الولايات المتحدة الأمريكية،
معتمدة على الروايات الشفهية ومعظمها
ركزت حول مساهمات الأشخاص في
مجالات السياسة والفكر والاقتصاد .
ومن أمثلة ذلك :

■ Hoopes, J : Oral History, an
Introduction for Students. The
University of North Carolina
Press. Chapel Hill.

■ Vancina, J. Oral Tradition as
History, The University of
Wisconsin Press, Madison 1998.

■ Ladjevardi, H. Reference
Guide to the Iranian Oral History,
Collection. Harvard University
1980.

أما البريطانيون فقد وظفوا التاريخ
الشفهي في دراسة التاريخ الاجتماعي

ويشير الهاشمي بالخير^(٤٨) إلى أن الجماهيرية الليبية قد قامت بإنشاء مركز تولى جمع الروايات الشفهية المتعلقة بفترة الاستعمار الإيطالي معللاً سبب إنشاء هذا المركز بندرة المعلومات المكتوبة حول الثورة الليبية من جهة، ومن جهة أخرى أن ما هو مكتوب لا يمثل إلا وجهة النظر الإيطالية، وقد قام الليبيون بحوالي أربعة آلاف مقابلة سجلت على ثلاثة آلاف شريط .

وذكر الهاشمي أن الاختلاف بين المروي وما جاء في الكتب والمصادر المكتوبة قليل نسبياً، وضرب مثلاً على ذلك اتفاق الرواة على الدور البارز الذي قامت به المرأة الليبية في مساندة الثوار الليبيين ودعمهم، وهذا يتفق مع كتاب ألن أوستر، العرب في طرابلس^(٤٩) .

وأكد الهاشمي على أن هؤلاء الرواة كانوا حريصين على قول الحقيقة كما شاهدوها حتى ولو كانت مؤلمة، على الرغم من أن عامل الزمن، وما فعله بهؤلاء المجاهدين يعني - كبر السن - قد يكون له تأثير، إلا أن تأثيره كان محدوداً في اختلاط بعض الأمور عليهم في بعض التفاصيل^(٥٠) .

والحركات العمالية والتاريخ المحلي .
وممن كتب في ذلك^(٤٦) :

■ Lance, D. An Archival Approach to Oral History London 1975.

■ Henige, D. Oral Historiography. Longman, London.

ويوجد علي سبيل المثال اليم أكثر من ١٥٠,٠٠٠ ساعة تسجيل وأكثر من مليون ونصف صفحة مطبوعة في مجموعات التاريخ الشفهي المعروفة بالولايات المتحدة وبريطانيا وحدها حتى بداية الثمانينات^(٤٧) .

أما بالنسبة للدول العربية فقد جرت محاولات لتوثيق الروايات الشفهية أذكر على سبيل المثال أنه في عام ١٩٧٦ قامت دائرة الثقافة والفنون في الأردن آنذاك، وقبل أن تتحول إلى وزارة بمحاولة جمع الفلكلور الشعبي، والأحداث التاريخية المتعلقة بالحرب العالمية الأولى وبعض العادات والتقاليد، وقد تم تسجيل المقابلات على أشرطة تجاوزت الخمسمائة شريط مدة كل شريط ساعة ونصف، إلا أنه للأسف لم تفرغ هذه التسجيلات وبقيت على أشرطتها، ولا يعرف مصيرها .

ونشرات مشروع توثيق القرى الفلسطينية المدمرة الصادرة عن مركز أبحاث جامعة بيرزيت^(٥١) . وأعتقد أن النية تتجه لدى الفلسطينيين اليوم لجمع الروايات الشفهية المتعلقة بالانتفاضة الفلسطينية، وما مرت به من أحداث، وما سقط فيها من شهداء .

مما تقدم تخلص إلى القول أن الرواية الشفهية ليست من الأمور المبتدعة في العصر الحاضر، بل هي امتداد لمنهج قديم بدأ منذ أن أخذ الإنسان يفكر بتدوين تاريخه وأحداثه، ولكن الأمر الواضح في هذا الشأن، ومن أجل تخطي السلبات التي يمكن أن تواجه الرواية الشفهية وأهمها عامل النسيان والخلط بين الأمور، هو قدرة المؤرخ على التمييز بين النسيج الوهمي أو الخرافي، والنسيج الحقيقي للحدث، وهذه تحتاج إلى خطوات عديدة أجملها بما يلي :

١ - تحديد موضوع البحث، ففي تحديد موضوع البحث يسهل على الباحث أن يحدد الأسئلة التي سيطرحها على من يقابلهم، وبالتالي تسهل عليه مهمة تصنيف الأشرطة، وتقسيمها لعدة عناصر مكملة لبعضها

وفي فلسطين ذكر عادل يحيى أن العديد من الباحثين الفلسطينيين قد تنبهوا إلى أهمية التاريخ الشفهي الفلسطيني، وأصدروا عدة دراسات وأبحاث منها على سبيل المثال روز ماري صايغ في كتابها :

■ Palestinians : From Peasants To Revolutionaries Zed Book, London, 1988.

وكتاب تيدور سويدنبرغ :

■ Swedenbury, T. Memories of the Revolts; The 1936-39 Rebellion and the struggle for Palestinian National Past. Ph.D. Dissertation unpublished. The University of Texas At Austin 1988.

■ The Israeli - Palestinian Conflict. A documentary Record, 1967-1990. Edited by Yehuda Lukas. School of International Service, American University, Washington DC 1991.

■ Mary Christina Wilson, King Abdullah and the Making of Jordan, Cambridge Middle East Library 1990.

البعض مع ملاحظة عدم توجيه أسئلة من شأنها أن تشكك في صدق الراوي، أو تستفز أو تقاطعه : وعلى الباحث أن يركز على البعدين الأساسيين في الحدث التاريخي وهما البعد الزمني الذي يهتم بتاريخ الحدث ووقت وقوعه . والبعد المكاني الذي يهتم بمكان وقوع الحدث .

٢ - اختيار الرواة : والرواة هم الأشخاص الذين ستم مقابلتهم، وعلى الباحث تقسيمهم إلى مجموعات مختلفة، أما بالنسبة للسن، أو الأحزاب السياسية، أو الموظفين، أو العامة من الناس، وكلما كثرت التقسيمات، وأخذت من كل قسم عينة كلما سهل على الباحث تكوين فكرة عامة عن الحدث وخاصة من المعارضين السياسيين .

٣ - تجهيز أدوات المقابلة من حيث أدوات التسجيل والأشرطة، ومع تطور وسائل التكنولوجيا يمكن استخدام الفيديو بحيث يظهر الصوت والصورة، وهذه ستكون أثبت لعدم النفي فيما بعد .

٤ - توثيق المقابلة وعدم الاعتماد على الذاكرة بحيث يذكر اسم الشخص ووظيفته، ومكان إقامته، وتاريخ المقابلة وموضوعها، ومدة التسجيل .

٥ - تفريغ التسجيلات وكتابتها بنفس الألفاظ التي وردت فيها، ثم مقارنة بعد الانتهاء منها مرة ثانية مع المسجل تلاشياً لوقوع خطأ أو تحريف في الروايات .

٦ - حفظ التسجيلات والأفلام والأشرطة وفق فهرسة واضحة وسهلة حتى يمكن للباحثين الوصول إليها .

وفي نهاية هذا العرض لابد من الاعتراف بأن للرواية الشفهية بعض السلبيات التي تتعلق بنسيان الرواة واختلاط الأخبار، وتدخل النزاعات والميول والأهواء التي تغلب على النفس البشرية فتفسر الأخبار كما تشاء، إلا أن هذه السلبيات تقل كلما كان المؤرخ مدركاً لما يقوم به، عارفاً بالمنهج التاريخي .

ورغم ذلك يبقى رأي السبكي في المؤرخين قائماً عندما قال في كتابه معيد النعم : "وهم، أي المؤرخون، على شفا جرف هاو لأنهم يتسلطون على

أعراض الناس، وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من كاذب أو صادق".

إن رأي السبكي هذا قد ينطبق على المؤرخ غير المدقق، أما المؤرخ الحق فهو الذي ينتقل من حدث إلى حدث ويرى أنماطاً، ويسمع أساليب تعبير جديدة، ويوسع إدراكه بتأمل أشكال كثيرة مختلفة من القوانين والأحداث والمؤثرات الفكرية والعادات المرئية.

إن فقدان الروايات الشفهية سوف يؤدي إلى زوال كثير من جوانب

الحقيقة مما يجعل المؤرخ غير قادر على إقامة جسر متين مع الأحداث المدونة. وهذه تجعل المؤرخ لا يقنع بملاحظات الدولة ومراسيمها ووثائقها فحسب بل ينبغي أن يختلط مع الجماهير في الشوارع والمقاهي والأماكن العامة والملتقيات الأدبية والسياسية فمن يرغب في الكشف عن الحقيقة لابد من السير على هذا الهدى.

أ.د. محمد عبد القادر خريسات
رئيس قسم التاريخ / الجامعة الأردنية

الهوامش

- ١ - الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، تحقيق شهاب أبو عمرو، دار الفكر بيروت ١٩٩٨، ج ١/٥٢٨، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠، مادة خبر .
- ٢ - ابن منظور، لسان العرب، مادة شفا .
- ٣ - المصدر السابق، مادة شفه .
- ٤ - المصدر السابق .
- ٥ - عادل يحيى، التاريخ الشفوي، مجلة آفاق فلسطينية، جامعة بيرزيت، ١٩٩٠، ص ٢ .
- ٦ - روزنتال، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة بيروت، ص ٢٣ .
- ٧ - هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس وآخرين، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٤٤ .
- ٨ - ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت ٣٥٨هـ)، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص ١٣٢ .
- ٩ - كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، (١٩٥٩)، ج ١/٢٥١ .
- ١٠ - المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، السعادة، مصر، ١٩٥٨، ج ٤١/٣ .
- ١١ - جب، دراسات، ص ١٤٥ .
- ١٢ - ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي، معجم الأدباء، سلسلة الموسوعات العربية، ١٩٣٨، ج ٦/٢٣٢ .
- ١٣ - صالح العلي، التدوين وظهور الكتب المصنفة، مجلة المجمع العلمي العراقي، م ٣٩٨/١٩٨٠، ص ٢٢، نقلاً عن هورفتز، المغازي ومؤلفيها، ترجمة حسين نصار، ص ٣٤ - ٣٥ .
- ١٤ - عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٥ .
- ١٥ - المصدر السابق، ص ١٥ .

- ١٦ - أنظر الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، الإكليل، تح محب الدين الخطيب، الدار اليمنية، صنعاء، ج ٤٦/١٠، الدوري، نشأة علم التاريخ، ص ١٤ .
- ١٧ - جب، دراسات، ص ١٤٥ .
- ١٨ - ابن هشام، أبو محمد بن عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزملائه، البابي الحلبي، ١٩٥٥، ص ٣ .
- ١٩ - روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح العلي، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣، ص ٩٩ .
- ٢٠ - أنظر : الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ج ٧١/١، ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط ٥، ص ٦١ - ٦٢ .
- ٢١ - أنظر : الجاحظ، البيان والتبيين، تح حسن السندوبي، مصر، ١٩٣٢، ج ١١٤/١، الأصفهاني، الأغاني، ج ١٢/١ .
- ٢٢ - الجاحظ، البيان، ج ١٢/١ .
- ٢٣ - ابن النديم، الفهرست، ص ٦٤٤ .
- ٢٤ - أنظر : حاجي خليفة، كشف الظنون، استنبول، ١٩٤٤، ج ١، ص ١٧٩، ابن حزم، جمهرة أنسلب العرب، ص ٥ .
- ٢٥ - الآبي، أبو سعد، منصور بن الحسين (ت ٤٢١هـ) نشر الدار، تحقيق محمد ابراهيم عبد الرحمن، الهيئة المصرية، ١٩٨٧، ج ٢٤٧/٥ .
- ٢٦ - جب، دراسات، ١٤٦ .
- ٢٧ - أنظر على سبيل المثال : المنقري، نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ)، وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، ١٩٩٠، ص ٢، ١٠، ٤٠، ٤٦، ٦١، ٦٣ .
- ٢٨ - أنظر : وكيع، خلف بن حيان، أخبار القضاة، تحقيق عبد العزيز المراغي، القاهرة، ١٩٤٧، ج ٢١٤/٢ . البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، ج ١ ق ١٩/٤، ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ١٩٦٨، ج ٤٣٤/١ .
- ٢٩ - عثمان موافي، منهج النقد التاريخي الإسلامي - والمنهج الأوروبي، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤، ص ٣٣ .
- ٣٠ - ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، ليدن، ج ٢، ص ٧ .
- ٣١ - روزنتال، علم التاريخ، ص ٩٩ .

- ٣٢ - موافي، النقد التاريخي، ص ٤٧، الخطيب البغدادي، الكفاية، ص ١٦٢ (طبعة الهند).
- ٣٣ - الأصفهاني، الأغاني، ج ١ - ٢ (بولاقي)، روزنتال، علم التاريخ، ص ٤٧.
- ٣٤ - المسعودي، مروج الذهب، ج ١٢/١.
- ٣٥ - روزنتال، علم التاريخ، ص ٣٤٨.
- ٣٦ - أنظر: السخاوي، شمس الدين بن محمد بن عبد الرحمن، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق روزنتال، بغداد، ١٩٦٣، ص ٢١ - ٢٢.
- ٣٧ - لمزيد من التفاصيل، أنظر: قحطان الدوري، أصول تلقي العلوم في المجتمع الإسلامي مجلة تعليم الجماهير، ع ١٤، السنة السادسة، ١٩٧٩، ص ١٤ وما بعدها.
- ٣٨ - لمزيد من التفاصيل، أنظر: لاندلو أوسينوويوس، النقد التاريخي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (١٩١٨ - ١٩٣٩)، ص ٧٨.
- ٣٩ - أنظر: محمد خريسات، الأردنيون والمواقف الوطنية والقومية (١٩١٨ - ١٩٣٩)، دراسة في الموقف الشعبي الأردني، عمان ١٩٩٢، ص ٥.
- ٤٠ - الهاشمي بالخير، عامل الدقة في الرواية الشفوية، مجلة البحوث التاريخية، ع ١٩٨٤/١، ص ٦٢.
- ٤١ - ألبان ج. ويدجيرري، المذاهب الكبرى في التاريخ، ترجمة ذوقان، قرقوط، دار العلم، بيروت، ص ٩.
- ٤٢ - أ. ل. رواس، التاريخ أثره وفائدته، ترجمة مجد الدين ناصف، سجل العرب، ص ٢.
- ٤٣ - رواس، التاريخ أثره وفائدته، ص ٦٨.
- ٤٤ - لويس جو تشك، كيف نفهم التاريخ، ترجمة عائدة عارف وأحمد أبو حاكمة، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٦، ص ١٣٥.
- ٤٥ - عادل يحيى، التاريخ الشفوي، ص ٢.
- ٤٦ - المصدر السابق، ص ٦.
- ٤٧ - المصدر السابق، ص ٦.
- ٤٨ - عامل الدقة في الرواية الشفوية، ص ٦٢.
- ٤٩ - Alan, Ostar, The Arabs In Tripoli, London, 1912.
- ٥٠ - الهاشمي، عامل الدقة، ص ٦٩.
- ٥١ - عادل يحيى، التاريخ الشفوي، ص ٦.